روائع القصص العالمية

كنوز الملك سليمان

هنري رايدر هاغارد

أكاديميا

روائع القصص العالمية

كنوز الملك سليمان

إعداد
نورما نابلسي

أكاديميا
بيروت - لبنان

كنوز الملك سليمان

حقوق الطبعة العربية © أكاديميا إنترناشيونال، 2013
ISBN: 978-9953-37-912-8

Original title «KING SOLOMON'S MINES»
Copyright: © MACAW BOOKS

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً.

الناشر

Academia International
Verdun,Rashıd Karameh St.
Byblos Bank Bldg., 8th Fl
P.O. Box 113-6669
Beirut 1103 2140 Lebanon

أكاديميا إنترناشيونال
فردان، شارع رشيد كرامي
بناية بنك بيبلوس، ط8
ص.ب 113-6669
بيروت 1103 2140 لبنان

Tel. (+961 1) 800811 - 862905 - 800832 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس

E-mail academia@dm.net.lb بريد إلكتروني
info@kitabalarabi.com

www.academiainternational.com
www.kitabalarabi.com

أكاديميا هي العلامة التجارية لأكاديميا إنترناشيونال ش م ل.
ACADEMIA is the Trade Mark of Academia International S.A.L.

المحتويات

لقائي مع السّير هنري كورتيس 4
أسطورةُ كُنوزِ سُلَيْمان 6
آمبوبا 10
رحلَتُنا في الصَّحراء 12
ماء! ماء! 14
طريقُ سُلَيْمان 16
أرضُ كوكُوَانا 18
الملِكُ توالا! 20
صَيْدُ السّاحِرات 24
العَلامَة 28
المَعْرَكة 30
مَعْرَكَةُ الرّماديّين الأخيرة 32
غود يُصابُ بوَعْكَةٍ صحيَّة 34
قاعَةُ الموت 36
غرفَةُ كُنوزِ سُلَيْمان 38
فِقْدانُ الأمَلِ 42
وداعُ إينيوزي 46
العُثور على المَفْقود 48

لقائي مع السير هنري كورتيس

أُدْعى ألان كواترمان، وأقطُنُ في دوربان، جَنوبِ أفريقيا. وها أنا الآن أُسَطِّرُ بقَلَمي هذه القِصَّةَ الغريبَةَ التي تنضَحُ صَفَحاتُها بأَحْداثٍ تزخَرُ بالمُغامرات. ولا بدَّ لي من أن أُسِرَّ لكُم، بأنني لستُ من مُحَبِّذي العُنْفَ وإنْ كنتُ في الحقيقةِ صيّادًا مُتمرّسًا. ثمانيَة عَشَر شَهْرًا فقط انْقَضَتْ منذُ اليوم الذي كوّنْتُ فيه ثَرْوَتي.

ثمانية عَشَر شهرًا انقضت منذ اليوم الذي الْتَقَيْتُ به بالسّير هنري كورتيس والكابتن غود للمرّةِ الأولى، عندما كنتُ في طريقِ العودةِ بَحْرًا إلى دوربان من إحْدَى رِحْلاتِ الصَّيْد، إذ صَدَفَ أن كان كلٌّ منهُما على مَتْنِ الباخِرَةِ نفْسِها.

كان السّير كورتيس يناهِزُ الثلاثينَ من العُمُر، وكان طويل القامَةِ، أشقَرَ الشَّعر، وكثَّ اللِّحْيَة، وكان يتَّسِمُ بعَيْنينِ كبيرتينِ رَماديتيّ اللون، في حين كان الكابتن غود ضابطًا بَحْريًا مُتقاعِدًا قصيرَ القامَةِ وبدينَ البِنْيَة، يضَعُ النَّظارات وطَقْمًا من الأَسْنانِ الاصْطِناعيَّة.

رانَ على لقائي الأوّل بالكابتن غود جوٌّ من المودَّةِ والأُلْفة، ثمّ مَضَيْنا لتناوُلِ العَشاء معًا حيث قامَ بتَقْديمي إلى السير كورتيس الذي دعانا في وَقْتٍ لاحِقٍ إلى حُجْرَتِه.

«سيد كواترمان»، قال السيّر هنري كورتيس، «قبل سنَتين، كنتَ تمارِسُ التِّجارَةَ كبائِعٍ مُتَجوّلٍ من بامانغواتو إلى شمال ترانْسفال حيثُ صادَفْتَ رَجُلاً يُدْعى نيفيل».

«أوه، أجَل، لقد مَكَثَ معي أُسْبوعَيْن من الوَقْت قَبْل أن يتوَغّل نحوَ الدّاخِل،» أَجَبْتُه وقد اسْتَوْلى عليَّ شيءٌ من الدَّهْشَة. «لقد وَصَلَتْني رسالةٌ قُبَيْلَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ من أَحَدِ المُحامين يَسْأَلُني فيها عمّا أملِكُه من مَعْلوماتٍ حولَه. فأفَدْتُه بأفْضَلِ ما أَعْرِف».

«صحيح»، ردَّ السّير هنري قائِلاً، «لقد تلقَّيْتُ رسالتك. ولكِنّني يا سيد كواترمان، أُريدُكَ أن تُساعِدَني في العُثورِ على شقيقي نيفيل أو جورج كورتيس.»

وفي سياق الحَديث، أَخْبرني السيّر هنري أنَّ خِلافًا مريرًا قد نَشَبَ بينهُما قُبَيْلَ خمسِ سَنَوات، على خَلْفيةِ وَصيَّةِ والدِهما المتوفّى، إذ خرجَ جورج في أَعْقابِ ذلك إلى أفريقيا سَعْيًا وراءَ الرِّزقِ الوَفير. فانْقَطَعَتِ الصِّلة بينهُما ولم يسمَعِ السّير كورتيس عنهُ أيَّ خبرٍ مُذّاك.

أسطورةُ كُنوزِ سُلَيْمان

«لقد سَمِعْتُ أنَّ جورج قد انطلَقَ في رِحلَةِ البَحثِ عن كُنوزِ مناجِمِ سُلَيْمان،» قلتُ له.

«مناجِمُ سُلَيْمان! وأينَ تُراها تَقَع؟»

«لا أعرِفُ مَوْقِعها بالضَّبْط. ولكنَّها مُحاطَةٌ بِجِبالِ سُلَيْمان بطريقةٍ يكْتنِفها الغُموض.

لقد لَمَحْتُ ذاتَ مرَّةٍ قِمَمَ الجِبالِ من قريةِ سيتاندا، ولكنَّ الصَّحْراءَ التي ترامَتْ أَطْرافُها على مسافةِ مئةٍ وثلاثين ميلاً كانَتْ تفصِلُ بيني وبينها. سمِعْتُ أيضًا أنَّ القبائِلَ التي تَقْطُنُ خلفَ هذه الجِبالِ وتتحدَّرُ من قبائِلِ الزّولو تعرِفُ مكانَ الـ«أحْجارِ الكريمة».

«عندَما نَزَلْتُ في قريةِ سيتاندا، التقيتُ البُرْتُغاليَّ خوسيه سيلفسترا الذي طَوَّحَ بِهِ الحُلْمُ إلى الصَّحْراء، فأعلَنَ أنه سوفَ يَغْدو في ليلةٍ وضُحاها أَغْنَى رجُلٍ في العالَم. ولكنْ ما كادَ يَمْضي أُسْبوعٌ على ذلك، حتّى أبصَرْتُ رَجُلاً هزيلَ البِنْيَةِ يكادُ جِلْدُهُ يلتصِقُ بعَظْمِه، يزْحَفُ صوبَ المُخيَّم وقد أَضْناهُ التَّعَب.

لم يكُنْ ذلكَ الرَّجُل أحدًا سِوى خوسيه سيلفسترا. إلا أنّه كانَ يُعاني ارْتِفاعًا في درجَةِ الحَرارةِ فَضْلاً عن تورُّمٍ واسْوِدادٍ في اللِّسان. وقبل أن يَلْفُظَ أنْفاسَهُ الأخيرَة، سَلَّمني حَقيبةً في داخِلِها رسالَة كَتَبها أَحَدُ أسلافِهِ قبل ثلاثمئةِ سَنَة.

تقولُ الوَثيقَة،

«أنا، خوسيه دا سيلفسترا، أَقْضي آخِرَ أيّامِ حَياتي داخِلَ كَهْفٍ على القِمَّةِ الجَنوبيَّةِ من الجَبَلِ الأَيْسَرِ للتّوائِمِ البَيْضاء. وها أنا ذا أَكْتُبُ بِقَطراتٍ من دَمي رِسالَتي هذه في العام ١٥٩٠. وعلى عَبْدي إن عَثَرَ على هذه الوَثيقَة، أن يوصِلَها إلى ديلاغوا وأن يَسْأَلَهُ رَفْعَها إلى جَلالَةِ المَلِك، لعلَّهُ يأمُرُ بإرسالِ جيشِهِ إلى هنا، فإن أفلَحَ الجيشُ في اجْتِيازِ الصَّحراء والجِبالِ بِسَلامَة، ونجَحَ في قَهْرِ رجال قبيلَةِ كوكُوانا الأشدّاء، فسوفَ يُصْبِحُ المَلِكُ آنذاك أَغْنَى مُلُوكِ العالَم. لقد شاهَدْتُ بأمِّ العَيْنِ عددًا لا يُحْصَى من حجارَةِ الماسِ الثَّمينَةِ في غرفَةِ كُنوزِ سُلَيْمان. لكن خيانَةَ غاغول لي كَلَّفَتْني حَياتي. فَلْيَتْبَعْ كلُّ من سوفَ يقصِدُ هذا المكان خارِطَتي، وليتسلَّقِ الجَبَلَ الأَيْسَرَ إلى أن يبلُغَ طريقَ سُلَيْمانِ العَظيم. الوَداع.

خوسيه دا سيلفسترا.»

«وقبلَ لَحَظاتٍ من شَقِّ أخيكَ طريقَهُ إلى الدّاخل، عَرَّجَ عليّ صيّادُهُ جيم الذي كان يَعْرِفُني، وأَطْلَعَني على المكانِ الذي كان يَنْوي سيدُهُ أن يَقْصِدَهُ.»

«سيد كواترمان»، قال السّير كورتيس، «هل ترافِقُني في رِحْلَةِ العُثُورِ على أخي؟» أصابَتْني الدَّهْشَة. «لا، شُكرًا لك يا سير كورتيس. لا أستطيعُ المغامَرَة بِحَياتي في رِحْلَةٍ مَحْفوفَةٍ بالمَخاطِر. إنَّ ابني هاري يَعْتَمِدُ عليّ.»

«سيد كواترمان، يُمكِنُني أن أدفَعَ لكَ المَبْلَغَ الذي تَطْلُبه.»

كان المالُ عَرْضًا لا يَسَعُني رَفْضُه، سيَّما وأنني كنتُ في أمسِّ الحاجَةِ إليه. لذلك قرَّرْتُ إبرامَ الاتفاقِ مع السّير كورتيس.

«حسنًا، لكن لديَّ شروطٌ ثلاثة. أولاً، تتحمَّلُ جميعَ النّفقاتِ التي سوفَ تَتَطلّبُها الرِّحلة. وإن عَثَرْنا على العاجِ أو غيرِه من الأشياءِ الثَّمينة، نتقاسَمُها أنا والكابتن غود مُناصَفَة. ثانيًا، تدفَعُ لي مبلغَ خَمْس مِئَةِ ليرةٍ قبل انْطِلاقِنا في هذه الرِّحْلَة. وثالثًا، إن قَضَيْتُ نَحْبي، تُسدِّدُ مبلغَ مِئَتي ليرةٍ على مدى خَمْسِ سَنَوات مُتَتالِيَة لمُسْتَشْفَى غاي في لُندن حيثُ يدرُسُ ابني الطِّبّ.»

وافَقَ السّير كورتيس على الشّروطِ الثَّلاثَة، بِدونِ أيِّ تَرَدُّد.

آمبوبا

بعد أن بلَغْنا دوربان، نزلَ السّير كورتيس والكابتنُ غود ضيفَيْنِ في مَنْزِلي. وفي هذهِ الأَثْناء، بَدأْتُ في إنجازِ التَّحضيراتِ اللاّزمَةِ للرِّحْلَة. فابْتَعْتُ عربةً وثورًا من قبيلَةِ الزّولو. لِحُسْنِ الحظّ، كان الكابتن غود قد خَضَعَ لدورَةٍ في التعليمِ الطّبّي والجِراحيّ، وكان يملكُ صُندوقًا رائِعًا للأَدَواتِ الطّبيَّة . كما اصْطَحَبْنا معنا بعضَ البنادِقِ والمُسَدّسات.

لقد استخدَمْتُ من أجلِ الرِّحلَةِ سائقًا ودَليلاً. وتمكَّنْتُ بصُعوبَةٍ من تَأْمينِ الخادمَيْن، فانتفوغل الذي كان مُتعقِّبًا خبيرًا، وخيفا الذي كان مُتمكِّنًا في اللُّغةِ الإنكليزية. بيدَ أنَّ مُحاولاتي بالبَحْثِ عن موظَّفٍ ثالثٍ قد باءَتْ كلّها بالفَشَل. ولكن قبلَ رحيلنا، أقبل إليّ رجُلٌ بَهيّ الطَّلْعَةِ طويلُ القامَة، وعرضَ عليَّ مرافقَتنا في رِحلتِنا إلى الشَّمال.

«أَخْبِرْني شَيْئًا عن نَفْسِك»، قلتُ له.

«أُدْعى آمبوبا. وتقعُ قبيلَتي في أَقْصى الشَّمال. وقد غادَرْتُها منذُ زَمَنٍ طويل. لا قريةَ لديّ. لقد خَدَمْتُ في فوجِ نكوماباكوسي، حيث تعلَّمْتُ فُنونَ القِتال. وفي وَقْتٍ لاحِقٍ، ذهبْتُ إلى ناتال لأَسْتَقي الخِبْرَةَ من الشَّعْبِ الأَبْيَضِ وأفيدَ منها. وفيما بعد، قاتَلْتُ ضدَّ سيتيوايو في الحَرْب. وأنا اليومَ مُرْهَقٌ، وأَتوقُ إلى العودَةِ إلى الشَّمال. ولا أَبْتَغي تَقاضي أيَّ أَجْرٍ لقاءَ ذلك».

بعد نقاشٍ وتَفْكير، لم نَجِدْ مانِعًا من اسْتِخْدامِه.

مَضَينا نضربُ في الأراضي البَعيدَةِ من دوربان إلى مشارِفِ قريَةِ سيتاندا على مسافَةِ ألف ميل. هذا وكان عَلَينا أن نقطَعَ الثلاثمئَةَ كيلومترٍ المتبقيةِ سَيْرًا على الأَقْدام، بعد أن تَرَكْنا العربَةَ والسّائِقَ والحارِسَ في إينياتي. غادَرْنا دوربان في نهايةِ كانون الثاني/يناير، ونَصَبْنا الخيَمَ على مقرُبَةٍ من قَريةِ سيتاندا في الأُسْبوعِ الثّاني من شَهْرِ أيار/مايو. لكِنّنا وللأسَفِ الشّديد، فَقَدْنا خيفا الذي قَضى في حادِثٍ مَشْؤومٍ خِلالَ هذه الرِّحْلَة.

رحلَتُنا في الصَّحراء

تَحُدُّ قريةَ سيتاندا صَحْراءٌ شاسِعَةٌ تنبسِطُ أطرافُها من جِبالِ سُلَيْمان.
كنا نعلَمُ بأنّه لا نَسْتَطيعُ أن نَصْطَحِبَ كلَّ شيءٍ مَعَنا إلى الصَّحْراء. لذلك، اتَّفَقْنا مع شَيْخٍ من بلدَةِ سيتاندا طاعِنٍ في السنّ أن يَعْتَني بأسْلِحتِنا الثَّقيلَة. وأقْنَعْتُ ثلاثَةً من أبناءِ البَلْدَةِ بِحَمْلِ قارورَةٍ كبيرةٍ مليئةٍ بالمياه ومرافقَتِنا على طولِ عشرين كيلومترًا فقَط .
استهلَلْنا رحْلَتَنا مع إطلالَةِ القَمَر في السَّماء. كنّا نَسيرُ خَبْطَ عَشْواء، لا شيءَ لِنَهْتَديَ على ضَوئِه إلى وُجْهَتِنا باسْتِثْناءِ الجِبالِ البَعيدَةِ والخارِطَةِ القديمَةِ التي خَلّفها لنا دا سيلفسترا.
ولو أنَّ الحظّ لم يُحالِفْنا في العُثورِ على بِئْرِ المياه الفاسِدَةِ التي كان قد أشار إليها على بُعْدِ ستّين ميلاً من نُقْطَةِ انطلاقِنا، لكنّا الآن في عِدادِ الأمْوات.
تَوَقَّفْنا مدةَ نِصْفِ ساعَةٍ لِنَرْتَوِيَ بالماءِ ولنأْخُذَ قِسْطًا من الرَّاحَة، ثم واصَلْنا السَّيْرَ حتّى بُزوغِ الفَجْر.

بعد انْقِضاءِ ساعَةٍ من الوَقْت، تناوَلْنا وَجْبَةً خَفيفةً من الطَّعام، ثم غَطَطْنا في سُباتٍ عَميقٍ على كُومَةٍ من الصُّخور. اسْتَفَقْنا عند السّاعَةِ الثّالِثة لِنُبْصِرَ الحَمّالين يَتَهيَّؤونَ للانْصِراف.
سارَعْنا إلى ملءِ قِناني المياهِ من القارورَةِ للمرَّةِ الأخيرَة واسْتَأْنَفْنا رِحْلَتَنا.
وعندما جَنَّ الليلُ، أَلْقَيْنا عصا التَّرْحالِ على إحْدى التِّلال. ولكن مَعَ حُلولِ الظَّلام، كنّا قد اسْتَنْفَدنا كافَّةَ قِناني المياه.

ماء! ماء!

ولكن سرعانَ ما أيْقظَنا عطشٌ مُبرِّحٌ من نَوْمِنا. فنهضَ فانتفوغل يَجوبُ في الأرْجاء وعيناهُ تَتفرَّسانِ الأرض. ثم أشارَ إلى إحْدى البُقَع، وقال: «آثارٌ لنبْتَةِ السّبرنغبوك. إنّها تَنْمو في جِوارِ المياه.»

ومعَ ذلك، لم نَتَمكَّنَ من إيجادِ نُقْطَةِ ماءٍ في أيِّ مَكان.

«ربما نَجِدُ المياهَ على قِمَّةِ التلّة»، اقترحَ السير كورتيس.

إذّاك، تسلَّقَ آمبوبا التّلّ وما لَبِثَ أن صاحَ قائلاً، «مياه»!

هُرِعْنا إلى الأمام. ووجَدْنا بِرْكَةً من المياهِ تَرْبُضُ في أحْضانِ فَجْوَةٍ عميقَةٍ على سَفْحِ التلّة. وعلى الرُّغْمِ من لونِ المياهِ الأسْودِ وطَعْمِها المُقْرِف، إلاّ أنّنا نَهَلْنا مِنْها من دونِ تَرَدُّد. رَوَيْنا

عَطَشَنا، ثمّ تناوَلْنا البعضَ من لَحْمِ البقَرِ وأخْلَدْنا إلى النَّوْمِ إلى أنِ اسْتَعْلَى النَّهار.

عندَما أقبلَ اللَّيْلُ، سرَيْنا خمسةً وعشرينَ ميلاً، إلى أن بَلَغنا السَّفْحَ الأدْنى من الجَبَلِ الأيْسر. كانَ الطَّعامُ والماءُ قد نَفَدا منّا.

وفيما كُنّا نَرْتَقي الجبلَ صُعودًا، ما فتِئَ الهواءُ يَزْدادُ صَقيعًا. فقضَيْنا ثلاثَةَ أيامٍ بائسةٍ يَسْتبدُّ البردُ القارِسُ بنا، من دونِ لُقْمَةِ طعامٍ تَسُدُّ جوعَنا أو جُرْعَةَ ماءٍ تَرْوي غليلَنا. لكنّنا اسْتَبْشَرْنا خيْرًا لمّا وَجَدْنا الكَهْفَ الذي كانَ قد أشارَ إليهِ دا سيلفسترا. ولَجَأْنا إلى الدّاخِل، والتِماسًا للدِّفء، تجاوَرْنا والْتَصقَتْ أجْسادُنا. لكنّ البردَ الشّديدَ لم يَترفَّقْ بنا وبلَغَ منّا كلَّ مَبْلَغ.

وعندَما انبلَجَ الصُّبْحُ، جارَ عَلَيْنا بصَدْمَةٍ كبيرةٍ عندَما صُعِقْنا برُؤْيَةِ فنتفوغل مُسْتَلْقيًا إلى جانِبِنا جُثَّةً هامِدَة . لكنْ قبلَ أن نتمكَّنَ حتّى من اسْتِجْماعِ أنْفاسِنا، دوَّتْ صَرْخَةٌ من الطَّرَفِ الآخَرِ للكَهْفِ أطْلَقَها الكابْتِن غود، فانْبَرَيْنا صَوْبَهُ لِنُبْصِرَ جثَّةً أُخْرى جالِسَةً هناك ورأْسُها يَرْتَمي على صَدْرِها وذِراعَيْها تَتَدَلّيانِ على جانِبيها. أمامَ هَوْلِ المَشْهد، لُذْنا بالفِرارِ وهُرِعْنا إلى خارِجِ الكَهْف.

ولكِنْ عندَما أصْبَحنا خارِجًا، تنبَّهنا إلى حماقَةِ تَسَرُّعِنا.

«سوفَ أعودُ أدْراجي،» قالَ السّير كورتيس. «لقد أصابَني الذُّعْرُ فَقَطْ لأنَّ الجُثَّةَ التي رَأَيْناها قد تكونُ عائِدَةً لِشَقيقي.» رَجَعْنا الى الكَهْفِ ولكن سَرْعانَ ما تَبيَّنَ لنا أن الجُثَّةَ لم تكُنْ تخُصُّ جورج كورتيس.

«إنه خوسيه دا سيلفسترا»، قال غود.

«مُستحيل» صِحْتُ متعجِّبًا، «لقد توفي منذ ثلاثمئَةِ عام.»

«صحيحٌ ولكنَّ الصَّقيعَ قد حَفَظَ جُثَّتَه»، أوضَحَ غود.

إذّاك، وَضَعْنا جثَّةَ فنتفوغل المتجمِّدَة إلى جانِبِ جثَّةِ سيلفستر، وغادَرْنا الكَهْف.

طريقُ سُلَيْمان

واصلْنا السَّيْرَ فترةً مِنَ الوقْت، إلى أن أبْصرْنا جدْولاً من المياهِ يتدفَّقُ في الجوار، فهُرِعْنا إليه وارْتوَيْنا من مياهِه الباردةِ والمُنْعشة وقد غمرَتْنا سعادةٌ لا تُوصَف. ثمَّ أشارَ السّير هنري إلى طريقٍ واسعٍ على الجانبِ الأيْمن وقال: «انْظُروا، ها هو ذا!» كانتِ الطَّريقُ التي ظلَّتْ في أبْهى حُلَّتِها، قد شُقَّت بين الصُّخور الصُّلْبة وقُدَّتْ بإتقانٍ وعِناية. كان عَرْضُها خمْسينَ قدَمًا على الأقل.

بدأْنا نسلُكُ الطَّريقَ وعِندما انْتصفَ النَّهار، كنّا قد أصْبحْنا على مَرْمى حجَرٍ من نهايةِ الطَّريق. أخذْنا قِسْطًا من الرَّاحةِ على ضِفافِ نهْرٍ في قلْبِ الغابةِ حيثُ أخذَ غود حمّامًا ونظَّفَ نفْسَه. حتى إنّه حاوَلَ أن يَحْلِقَ ذقْنَهُ بشفْرةِ الحلاقةِ بعد أن طلَسَ وجهَهُ وذقْنَهُ بالدُّهون. كانتْ مُهمَّة صعْبة، ولكنه نجَحَ مع ذلك في حلْقِ الجانبِ الأيْسر من وجْهِه. وفجأةً، رأيتُ سهْمًا ينطلِقُ كالضَّوْءِ فوقَ رأسِه.

وعندما جُلْتُ بنظَري، أبصرْتُ على بعدِ عشْرينَ قدَمًا من غود، مجْموعةً من المواطنين مُكْتسينَ بالرِّيشِ الأسودِ ويرْتدون عباءاتٍ قصيرةً من جِلْدِ النَّمر. إذّاك، تقدَّمَ جُنديٌّ هرِمٌ خطوةً إلى الأمام.

صوَّبَ السّير هنري، وغود، وآمبويا بنادِقَهُم عليهم. ولكنَّهم على ما يبدو كانوا يَجْهلونَ ماهيَّة البنادِق. «أخفِضوا بنادِقَكُم!» هتفْتُ بأصْحابي ثم توجَّهْتُ إلى الرَّجُل المُسنّ، وحيَّيته بلغة الزّولو قائلاً: «مرحبًا».

«مرحبًا»، أجابَ الرَّجلِ العَجوز بإحدى لَهجاتِ الزّولو.

«من أينَ تأتون؟ لمَ ثلاثةٌ منكُم بيض، والرابعُ مثلنا؟» مشيرًا إلى آمبويا .

فأجبْتُه قائلاً: «نحنُ غُرباء، وقد أتَيْنا في سَلام. إنَّه خادِمٌ لدَيْنا.»

«لا يمكِنُ للغرباءِ البقاءُ على قيْدِ الحياةِ في كوكُوانالاند. إنّه قانونُ المَلِك!»

«ما الذي يقولُه؟» سألَ غود.

«إنّنا على وَشْكِ أن نَلْقى حتْفَنا،» أجبْتُه بتجهُّم.

«أوه، يا ربي!» تأوّهَ غود قائلاً، ثمّ وضَعَ يَدَهُ على طقْمِ أسْنانِه وفي حرَكةٍ عصبيَّةٍ، سحَبَ الجُزْءَ العُلْويَّ منه قبلَ أن يُعيدَهُ إلى مكانه من جديد. بيدَ أنَّ تلكَ الحركة كانتْ ضرْبَةَ حظٍّ لا مثيلَ لها، إذ سرعانَ ما تراجَعَ أفرادُ الكوكوانا الى الوراءِ مُطْلقينَ صيْحاتِ رُعْبٍ وتعجُّب.

«كيفَ ذلك»، تحامَلَ الرَّجُلُ العَجوزُ على نَفْسِه وسأل، «كيفَ لهذا الرَّجُل، الذي يَنْمو شعْرُهُ على جانبٍ واحدٍ فقطْ من وَجْهِه ولهُ عَيْنٌ

واحِدة شفَّافة تلْمَعُ تحتَ أشِعَّةِ الشَّمْس، أن يكون له أسنانٌ متحرِّكة؟»

إذّاك، زلَقَ غود أسنانهُ في كُمِّ قَميصِهِ القُطْنيّ وابتسَمَ ابتِسامةً عريضةً للسُّكّان الأصْليين كاشِفًا عن لِثتِه. فجَحَظَتْ عيونُهُم عَجبًا. فيما بعد، مرَّرَ يدَهُ على فمِه، وابتسَمَ ابتِسامةً عريضَةً مرَّةً أُخْرى ليكْشِفَ هذه المرَّة عن مجْموعَتَيْن من الأسْنان.

«أنتُم أرواح»، قالَ الرجلُ العجوزُ مُتلعْثِمًا. «فلْتعْفُ عنّا الآلِهَة».

تلقَّفْتُ الفرصَةَ التي سنَحَت لنا وقلت: «لكُم العَفْو. نحن قادِمونَ من أكبرِ النُّجومِ التي تَسْطَعُ في سماءِ اللّيلِ لنمْكُثَ معَكُم فَتْرةً من الوقْت. ولكن أيَّ تَرْحيبٍ هذا الذي حَظيْنا بِه! قد يكونُ علينا الثَّأْرُ ممَّن رمانا بالسّكّين».

«فلْتعْفوا عنْهم، أيُّها الأسياد،» توسَّلَ إلينا الرَّجلُ العَجوزُ قائِلاً. ثمّ أضافَ: «إنّه سُكراغا، نَجْلُ ملكنا توالا. وأنا إنفادوس، عَمّه.»

ثمَّ في استعراضٍ لِقُوانا وكتحْذيرٍ لهم، أطلقْتُ النَّارَ على ظَبْيٍ بواسِطةِ «الأنبوبِ السِّحري»، فخَرَّ صَريعًا على الفوْر. إذّاك، استأثَرَ الخَوْفُ بأفرادِ الكوكُوانا، وعرضَ إنفادوس اصْطِحابَنا إلى مَلِكِهم الذي يعيشُ في العاصِمةِ لو.

أرضُ كوكُوانا

بعد ظُهْرِ ذلك اليوم ، مَضيْنا قُدُمًا نحوَ وُجْهتِنا برفقةِ إنفادوس وسْكراغا على طُولِ الطَّريقِ الرَّائعَة .

وقد علِمْتُ من إنفادوس أن حربًا أهليَّةً كانت قد دارَتْ رَحاها في بلدَتِهم قبلَ فترةٍ من الزَّمَن. «كان لسيّدي، الملِك إيموتو، أخي غير الشَّقيق، شقيقٌ تَوْأم. ووفقًا لتقاليدِ قبائِلِنا، تُسْلَبُ حياةُ الأضْعَفِ بين التَوْأمَيْن. ولكنَّ غاغول، وهي امرأةٌ عجوزٌ واسعةُ الدَّهاءِ ترتعِدُ لها الفرائص، قامتْ بإخْفاءِ توالا، أضْعَفِ الطِّفلين. وعندما أدرَك المَوْتُ والِدَنا، خلَفهُ إيموتو. وكان قد رُزِقَ من زوجتِه المُفضَّلَة ابنًا أطْلقا عليهِ اسْم إينيوزي. وعندما أتمَّ إينيوزي الثالثةَ من عُمُرِه، عصَفتِ المَجاعةُ في البِقاع. وخلالَ ذلكَ الوَقْت، كانَتْ غاغول قد أقنعتِ الشَّعْبَ بأنَّ «الملكَ إيموتو لا يَسْتحِقُّ اللَّقب.» فأحْضَرَتْ توالا وكَشَفَتْ لهُم عن وَشْمِ الأفْعى المُقدَّسَة التي كانتْ تَلُفُّ خَصْرَه، وهي العلامَةُ التي تؤكِّدُ أنَّه نَجْلُ مَلِك. صَدّقَها النّاسُ فأرْدى توالا إيموتو من دونِ إضاعَةِ وَقْت.

«عندما شَهِدَتِ الملِكَةُ ذلك، حَمَلَتْ إينيوزي وولَّتْ هارِبَةً بِهِ باتِّجاهِ الجِبال. ولا بُدَّ أنَّهما قد لقيا حَتْفَهُما، لأنَّ أحدًا لم يُبْصِرْهُما مذّاك.»

«إذًا في حالِ بقيَ هذا الطِّفل إينيوزي على قَيْدِ الحَياة، يكونُ هو المَلِكُ الحَقيقيّ؟»

«هذا هو الحال، يا سيّدي».

في ما بَعْد، قادَنا نحوَ قريةٍ حيثُ شاهَدْنا مجموعَةً من الرِّجال تتوافَدُ خارِجَ البَوّابات، وتَصْطَفُّ على جانبي الطَّريق. كانوا يُنْعتونَ بـ «الرَّماديّين»، وهُمْ خِيرَةٌ من الجُنودِ الأشِدّاءِ الذين يَخْضعون لإمْرَةِ إنفادوس. عند مرورِنا، رَفعوا رِماحَهُم وألقوا التحيَّةَ الملكيَّةَ في صَوْتٍ واحِدٍ صائِحين: «كوم».

أرْشَدَنا إنفادوس في ما بعْد إلى داخِلِ كوخٍ كبيرٍ ومُريح. وفي وَقْتٍ لاحِق، وبينما كُنّا نتناوَلُ الطَّعامَ مع إنفادوس وسْكراغا، أُبلِغْنا بأنَّنا سَنلْتقي توالا في العيد السَّنويّ الذي سيتمُّ إحياؤه خلال بضْعَة أيّامٍ في العاصِمَة لو.

الملكُ توالا!

اسْتَغْرَقَ السَّفَرُ من كرال إلى لو يومَيْن كامِلَيْن على طريقِ سُلَيْمان العَظيم. وكانَتْ تَنْتَصِبُ على بُعْدِ ميلين من شَمالِ لو تَلَّةٌ غَريبَةٌ تُشبِهُ حَدْوَةَ الحِصان. وَبعدَ ستّين أو سَبْعين ميلاً، أبصَرْنا ثلاثَةَ جِبالٍ كبيرةٍ تشمَخُ بقِمَمِها المُكَلَّلَةِ بالثّلوجِ عالِيًا، وتجسِّدُ مُثَلَّثًا رائِعًا.

أخبَرنا إنفادوس أنَّ الجبالَ التي تُدْعَى بالسَّاحِراتِ الثَّلاث، كانَتْ تزخَرُ بالكُهوف، وأنَّ حفرةً كبيرةً كانَتْ تفصِلُ بينها. في هذا المكان كانَتِ القَبيلَةُ تَدْفِنُ ملوكَها.

وعندَما وَصَلْنا إلى مشارِفِ لو، اصْطَحبَنا إنفادوس إلى مَجْموعَةٍ من الأَكْواخِ المُتناثِرَةِ في كلِّ اتّجاهٍ حيثُ كان سَيَتَسنّى لنا أخذُ قِسْطٍ من الرّاحَة.

في صَباحِ اليومِ التّالي، ذَهَبنا للقاءِ المَلِكِ توالا وأَخَذْنا معنا بندقِيَّةً وينشستَر هديَّةً له.

كان المَلِكُ توالا طويلَ القامَةِ، بَشِعَ المَلامِح، لا تَلْمَعُ أَسْفَلَ سَحْنَتِه سِوى عينٍ واحِدَة. وكانَتْ تَعْلو وجْهَهُ نظرةٌ تتطايَرُ منها سِهامُ الشّرِّ ويلتَفُّ على هامَتِهِ دِرْعٌ مُشِعٌّ، فيما تَتَلألأُ على جَبينِه ماسَةٌ كبيرةٌ من الماسِ الخام.

توجَّهَ توالا إلينا قائِلاً، «من أين جِئْتُمْ ولماذا؟»

«لقد أَتَينا من النُّجومِ لرؤْيَةِ هذه الأرض».

«هل يأتي هذا الرَّجُل أيضًا من النُّجوم؟» تَساءَلَ مُشيرًا إلى آمبويا.

«نعم. لكنَّ هذه الأمور تَتَخطّى قُدُراتِكَ أيّها المَلِك».

«أنتُم تتحدَّثون بنَبرَةٍ عالِيَة، يا أهلَ النُّجوم.»
«أيها الملِك،» قاطَعَتْه قائِلاً، «حذارِ. أوَلَمْ يُخبِرْكَ سْكراغا وإنفادوس بأنّنا نملِكُ القدرَةَ على قتلِ أيِّ كان من مسافَةٍ بعيدة؟»
«أنا لا أؤمِنُ بذلك. عليكُم إثْبات قوَّتِكُم مرَّةً أخرى».
إذّاك، أطلقَ السّير كورتيس النارَ على ثَوْرٍ وأرْداهُ قتيلاً. فاسْتَغْلَقَ الكلامُ على توالا تحتَ وَطْأةِ الخَوْف. ثمّ قَدَّمْتُ له البُنْدقِيَّةَ مُحذِّرًا إياه من أنّه، إن تَجَرَّأَ وأقْدَمَ على قتلِ رُجلٍ ما بواسِطَةِ هذه الآلَة الجَوْفاء، سوفَ يلْقى حَتْفَه.
وإذا بامرأةٍ صَلْعاء الجَبينِ قد اعْتَرَى ملامِحَها الذُّبول، وقد خَطَّتِ التَّجاعيدُ المُتَغضِّنةُ وَجْهها،

تتسلَّلُ إلينا. كانت غاغول ساحِرَة السَّاحرات. ثمّ قالت في صَوْتٍ خارِق، «اسْمع أيها الملِك! إنّني أقرأُ في الغَيْب. وإنِ اسْتطلَعْتُ المُسْتَقبلَ أرى بَحْرًا من الدِّماءِ يَسيلُ في كلِّ مكان، وجنودًا يتدفَّقون إلينا من كُلِّ حَدْبٍ وصَوْب. وإنني أرى أيضًا جَمْعًا من الرِّجال البيض يَزْحفون إلينا».
ثمّ رَمَقتْنا بعَيْنيها اللتين كانتا تَتَّقدانِ ذكاءً وقالت، «إنّ هؤلاء الرجالِ البيض القادِمين من النُّجوم يَبْحثون عن شخْصٍ هو في عِدادِ المَفْقُودين. ولكنَّهُ ليس هنا. لقد جِئتُم من أجلِ الحِجارَةِ الكَريمة. ولكنْ لا بُدَّ أوّلًا من أن تَجِفَّ الدِّماء».
ثم رَمقتْ آمبوبا، وقالتْ: «أنت لا تسْعى وراء الحِجارةِ الكريمة! من أنْت؟ أعتقِدُ بأنّني أعرِفُ الجواب. أنت ...»
لكن قبل أن تُنْهي كلامَها، أصابَتْها فجأةً نوبةٌ غريبةٌ، فسَقَطَتْ مَغشيًّا عليها وحُمِلتْ على أثرِها إلى داخِلِ كوخ. ساوَرَتِ الشُّكوكُ توالا وكادَ أن يُجْهِزَ علينا، لكنَّهُ عَدَلَ عن الأمْر، لما تَذَكَّرَ مَصيرَ الثَّور. «اذْهبوا في سلامٍ الآن وتَعالوا لِمُشاهَدةِ حفلَةِ الرَّقْصِ الرّائِعَة.»

صَيْدُ السَّاحِرات

لدى عودَتِنا إلى الكوخ، أَسَرَّ لنا إنفادوس بأنَّ توالا طاغِيةٌ مُستبِدٌ لا يَترفّقُ بأَحَدٍ.

«اللَّيلة، وخِلالَ صَيْدِ السّاحرات، سوفَ تقومُ السّاحراتُ بشَمِّ الحاضِرينَ وسوفَ يَلْقى الكَثيرون مَصْرَعَهُم. وإن كانَ الملِكُ يَشْتَهي ماشِيَةَ أحدِ الرِّجال أو قَطيعَه، أو حتّى زوجَتَه، أو إن كان يَخْشى من تمرُّدِ رَجُلٍ مُعيَّن، فإنَّ غاغول والسَّاحراتِ الصَّيادات سوفَ يَقُمْنَ بشَمِّهِ لتخليصِ المَلِكِ منه.»

«لماذا لا يُطيحُ الشَّعْبُ بهِ، يا إنفادوس؟»

«أيُّها السّادة، إن قُتِلَ، فسوفَ يخلِفُهُ على العَرْشِ ابنُهُ الشِّرّير. حبّذا لو كان إينيوزي مَلِكُنا الشّرعيّ هنا. لكنَّهُ مَيْت!»

«هل أنتَ متأكِّد؟» قال آمبويا.

«ماذا تَقْصدُ يا فتى؟» سأله إنفادوس.

«قبل بِضْعِ سَنَواتٍ، وبعد أن قُتِلَ الملِكُ إيموتو، فرَّتْ زوجتُهُ برِفْقَةِ إينيوزي»، قال آمبويا.

«إنَّ الجميعَ يَعْتقدُ بأنَّ الموتَ أدركَهُما بين أَحْضانِ الجِبال. لكنَّهُما عَبَرا الجِبالَ وأَرْشَدَتْهُما قَبيلةٌ مُتَجوِّلَةٌ في طَريقِهِما بينَ رِمالِ الصَّحراءِ وما بَعْدَها. هناك عاشا بين الزّولو لِسَنَواتٍ عديدةٍ. وبعد وفاةِ والِدَةِ إينيوزي، سافَرَ الأخيرُ إلى المناطِقِ التي يَقْطُنُها البيض، واسْتَقى مِنْهم الحُكْم. وعَمِلَ خادِمًا وجُنديًّا. وبعد سَنَوات، انْضَمَّ إلى بِضْعَةِ رِجالٍ بيضٍ أرادوا القُدومَ إلى هنا. واجْتازوا رِمالَ الصَّحراءِ المُحْرِقَة، وعَبَروا مُنْعَرَجاتِ الجِبالِ المُتَوَّجَةِ بالثّلوج، إلى أن بلغوا أَرْضَ كوكُوانا والتقوا بك».

إذّاك، اسْتحوذَتْ علينا الدَّهْشَة.

«أنا إينيوزي، المَلِكُ الشّرعيّ لكوكُوانا!» وبعد ذلِكَ، نَزَعَ آمبويا حِزامَهُ، كاشِفًا النِّقابَ عن وَشْمِ الثُّعْبانِ الذي كان يُزيِّنُ خَصْرَه!

«كوم»! صاحَ إنفادوس، الذي ارْتَمى على رُكْبتَيْهِ. «إنه ابْنُ أخي – الملك»!

«عمّي، انهض، لستُ مَلِكًا بعد. ولكن بمُساعَدَتك، وبمساعَدَةِ هؤلاءِ الرِّجالِ البيض الشُّجْعان، سوفَ أَسْتعيدُ عَرْشي وأَسْتَوي على كُرْسيّ المُلْك»، قال آمبوبا.

وافقَ السّير كورتيس وغود على مساعَدَته. وانْضَمَمْتُ إليهما ولكنّني اشْتَرَطتُ عليهما الحصول على بَعْضِ الماسات إن وَجَدْناها.

عندئذٍ، قال إنفادوس: «سأُحاولُ إقناعَ بعضِ القادَةِ وإحْضارِهم إلى هنا في الغَد.» في تلكَ اللَّحْظَة، أقبلَ رُسُلُ المَلِكِ إلينا وقدّموا لنا بِضْعَةَ دروعٍ وفؤوس.

بعد أن غارَتِ الشَّمْسُ في مَهْدِها، اصْطَحَبنا إنفادوس إلى حَفْلَةِ الرَّقص. كنا قد ارْتَدَينا الدُّروعَ تحتَ ملابِسِنا ورَبَطْنا المُسدَّساتِ على خُصورِنا. وعندما وَصَلْنا، رأينا عشرينَ ألفَ جنديّ تابعين لقريةِ توالا مُحْتَشِدين ويقفون بصَمْتٍ وبلا حراك.

وسَرعانَ ما حَضَر توالا مَصْحوبًا بسُكراغا وغاغول والعَشَراتِ من الجلّادين من ذوي المَظاهِرِ الوحْشِيَّة. ثم سَمِعْنا وَطْأَةَ قَدَمَيْن، وإذا بعَشْرَةِ نِساءٍ عَجائزَ غريباتِ المَظْهَرِ يَنْبثِقْنَ من بين حُشودِ المُحاربين ويَعْدونَ نَحْونا. كانَتْ وجوهُهُنَّ مَطْلِيَّةً بالأَبْيَضِ والأَصْفَر، وتَهْتَزُّ حولَ خُصورِهِنَّ عِظامٌ بَشَرِيَّةٌ، وكُنَّ يَحْمِلْنَ عِصِيًّا صَغيرةً مُتشعِّبة. كنَّ يُدْعَوْنَ بالإيزانوزي، أو

السَّاحِرات الصَّيّادات اللواتي يَخْضَعْنَ لسُلْطَةِ غاغول. وعِندَما تُعْطي الأَخيرةُ الأَمْرَ، تنطلِقُ نساءُ الإيزانوزي في كلِّ اتِّجاهٍ مُطْلِقاتٍ صَيْحاتٍ وَحْشِيَّة.

شاهَدْنا واحِدَةً من الإيزانوزي على مَقْرُبَةٍ منّا. ثم ما لَبِثْتْ أن توقَّفَتْ أمامَ فَوْجٍ من المُحاربين، وبدأَتْ تَرْقُصُ وتَقْفِزُ وتَهُزُّ بِجُنون. وفجأَةً، تسمَّرَتْ في مكانِها ولَمَسَتْ بعَصاها مُحارِبًا طويلَ القامَة. وما كادَتْ تَفْعَلُ حتّى انقَضَّ الجلّادون عليهِ وطَعَنوهُ على الفَوْر. استمرّتْ هذه اللُّعْبَة بلا هَوادة إلى أن قُتِلَ مِئَةٌ من المُحاربين. عندئذٍ، توقَّفَتْ الإيزانوزي وتنفَّسْنا نحن الصُّعداء ظَنًّا منّا أنَّ أَعْمالَهُم الدَّمويَّة قد بَلَغَتْ نِهايَتَها. لكنَّ غاغول أتتْ مُترنِّحَةً تجاهَنا ولَمَسَتْ آمبوبا.

«كلُّ من يَمسُّه يكونُ مَصيرُه الموْت»، صِحْتُ بها قائلاً.

«اقبضوا عليه!» هَدَر توالا إلى الجلّادين. لكنّني على الفَوْر، ضَغطْتُ مُسَدَّسي على رأسِ توالا وصِحْتُ: «إذا مسَّ أحدُكُم شَعْرَةً من رأسِ آمبوبا، يكونُ مصيرُ المَلِك الموْت.» صوّب السّير كورتيس مسدَّسَهُ أيضًا على الجلّاد، فيما شَهَرَ غود مسدَّسَهُ صوبَ غاغول. «حِرْصًا منّا على حُسْنِ الضّيافَة، سوفَ أَعْفو عنه،» قالَ توالا جافِلاً. ثمَّ عُدْنا أدراجَنا إلى أَكْواخِنا وقد اسْتَحوذَ علينا شُعورٌ بالغَثَيان بعد ما شَهِدْناهُ من مَذابِحَ دَمويَّة.

العَلامَة

قبلَ بُزوغِ الفَجْر، عَرَجَ إنفادوس على كُوخِنا بصُحْبَةِ ستَّةٍ من الزُّعماء.
قام إينيوزي مرَّةً أُخرى بالكَشْفِ عن وَشْمِهِ وأعادَ سَرْدَ قِصَّتِه. ثم، سألَهُم إنفادوس : «أيُّها الرُّؤساء، هل ستقِفونَ إلى جانبِ هذا الرَّجل وتُساعِدونَه على اسْتِعادَةِ عَرْشِ والدِهِ؟ لقد سُفِكَتْ أَنْهُرٌ من الدِّماءِ في عَهْدِ توالا. عليكمُ أن تَتَّخِذوا قراركُم!»
عندئذٍ، تَقدَّمَ أحدُ القادَةِ إلى الأمام، وقال «إذا كان إينيوزي هو المَلِكُ الشَّرعيّ، فلْيُعْطِنا هؤلاءِ الرِّجالُ البيضُ – علامَةً سِحْرِيَّة. عندئذٍ، سوفَ نُدرِكُ بأنّ سِحْرَهُم يَصُبُّ في مَصْلَحتِنا».
إذاك خَطَرتْ للكابتن غود فِكْرةٌ رائِعَة. «غدًا هو الرابعُ من حزيران/يونيو. سوفَ يكونُ هناكَ كُسوفٌ كُلِّيٌّ للشَّمْسِ في السّاعَةِ الواحِدَة. وسوفَ تَشْهَدُ عليهِ أفريقيا عن بَكْرةِ أبيها. قلْ لهُم بأننا سوفَ نُطْفِئُ الشَّمْسَ غدًا زُهاءَ نِصْفِ ساعَةٍ من الوَقْت.»
فكرّرْتُ الحيلةَ على مسامِعِهم.
بعد فَتْرةٍ وَجيزَة، أبْلَغَنا إنفادوس أنَّ توالا سوفَ يَدْعونا صباحَ اليومِ التّالي لمُشاهَدَةِ حَفْلِ رَقْصَةِ الفَتَياتِ الّتي سيتمُّ في أعقابِها التَّضْحِيَة بأكْثرِ الفتيات بياضًا للبشرة قُرْبانًا لـ«آلِهَةِ الصَّامِتة».
وهكذا مَضينا في صباحِ اليومِ التّالي لمُشاهَدَةِ العرْضِ حيثُ استقْبَلَنا توالا بمودَّةٍ كبيرةٍ لكنّني لمحْتُهُ يرمُقُ آمبويا بنظراتٍ ينبعِثُ منها الحِقْدُ والشَّرّ.
بدأتِ الفتياتُ يرْقُصْنَ برشاقةٍ ضِمْنَ مجْموعات، ويُنْشِدْنَ أغاني عَذْبَة. ثم لما انْتهيْن، أطلَّتْ من بينِ الصُّفوفِ حَسْناءُ تُحاكي البَدْرَ بجَمالِه، وبدأتْ تَتمايَلُ بخَصْرِها وتَدورُ حولَنا. وبعد هُنَيْهة، أعقَبَتْها مَجْموعَةٌ من الفَتيات، ولكنْ أيًّا منهُنَّ ما كانَتْ تُضاهيها كياسَة أو جَمالاً.
وبعد أن أدَّتْ جميعُ الفتياتِ رَقَصاتِهِنّ، سألَني توالا: «من هي أفْضَلهُنَّ، أيُّها الأبْيض؟»
«الأولى»، أجَبْتُه في غَفْلَة، ولكنّني سَرعانَ ما عَضَضْتُ لِساني لمّا تذكَّرْتُ المَصيرَ الظَّالمَ الذي كان ينتظِرُ الفتاة. دُفِعَتِ الفتاةُ التي كانَتْ تُدْعى فولاتا، إلى الأمام، وهي تُناضِلُ وتَجْهَشُ بالبُكاء.
عندَما تَقدَّم سْكراغا مِنْها، رَمَتِ المِسْكينةُ نَفْسَها على قَدَمي غود مُسْتجيرَةً به. اسْتشاطَ توالا وسْكراغا غَضَبًا عندَما هدّأ غود من رَوْعِها. ثمّ نهَضْتُ أنا أيضًا ووقَفْتُ درْعًا متينًا ما بين الفتاةِ المِسْكينةِ وسْكراغا. «سْكراغا، اقتُلْها! أيُّها الحُرّاس، اعتقِلوا هؤلاء الرِّجال،» هَدَرَ توالا. على الفَوْر، تقدَّمَ الحُرّاسُ إلى الأمام. فصِحْتُ

بهم قائِلاً: «توقَّفوا! إن تقدَّمْتُم خُطْوةً أخرى، سوفَ نقومُ بحَجْبِ الشَّمْسِ وسوفَ يلُفُّ الظَّلامُ الأرْض».
توقَّفَ الرِّجال. وظلّ سْكراغا مُنْتصِبًا أمامَنا رافِعًا رُمْحَهُ من دونِ أن يَرِفَّ له جَفْن.
«إنه كاذِب»! تمْتَمتْ غاغول. «لا أحدَ يَقْوى على إخْمادِ الشَّمس».
رَنَوْتُ إلى الشَّمْس وأنا أتَضرَّعُ إلى الله أن تَنْكَسِفَ كي لا تَكْسِفَني. ولحُسْنِ حَظّي وفَرَحي الشَّديد، رأيتُ نورَها يَخْبو والكُسوفُ يبْدأ. ثمّ أبْصَرْتُ الظِّلالَ تَتسلَّلُ ببُطءٍ على الشَّمس، لتَعْلو على الفَوْر من حولِنا صَيْحاتُ الرُّعْب.
«إنَّ الشَّمْسَ تُحْتَضَر»، صرخَ سْكراغا مُرْتَعِدًا. «سوف نموتُ كلُّنا تحتَ الظَّلام.» ومن شِدَّةِ خوفِه، اسْتَلَّ رُمْحَه، وضربَ به صَدْرَ السّير هنري. لكنّ الرُّمْحَ اصْطدَمَ بالدِّرْعِ المُتواري تحتَ قَميصِهِ وارتدَّ عَنْهُ من دونِ أن يُصيبَه بأيِّ أذًى. إذّاك، التقَطَ السّير هنري الرُّمْحَ بسُرْعَةِ البَرْق، وقَذَفَ سْكراغا به الذي ما لبِثَ أن خَرَّ صَريعًا!
عِندئذٍ، أطْلَقتِ الفَتَياتُ سوقِهِنَّ للرّيح في ارْتباكٍ شَديدٍ وهَلَع، خَوْفًا مِنَ الظَّلام الذي كان يَزْحَفُ على البِقاع. كما هُرِعَ المَلِكُ وحرّاسُهُ وغاغول هم أيضًا إلى داخِلِ الأكْواخ، لِتُقْفِرَ الدّارُ من أهْلِها، فنُمْسي وحدَنا برفْقَةِ فولاتا وإنفادوس والقادَةِ الذين زارونا الليلةَ الماضِيَة. «أيُّها القادة»، قلتُ لهم، «لقد أعْطيناكُمُ العَلامَة. إنِ اقْتَنَعتُمْ بها، هيّا بنا نَسْتفيدُ من الظَّلامِ الدامِسِ الذي حلَّ بالمكان ولنولّي الأدبار». وهكَذا، رَحَلْنا عنِ المَكان.

المَعْرَكة

انْقَضَتِ السّاعات، وانْتَهى الكُسوف. فقادَنا إنفادوس والقادةُ إلى التَّلِّ الهلاليّ حيثُ كانَ يحْتشِدُ عُشْرون ألف جُنديّ. هناك، وَعدَهُم إينيوزي بإيقافِ صَيْدِ السّاحِراتِ إذا ربحَ المَعْرَكة وأطاحَ بِغريمِه، فانهالتْ عليهِ صَيْحاتُ التَّشجيعِ وألقوا عليه التحيَّةَ المَلكيَّة.

ثمّ، زَحفتِ الكتائبُ اسْتِعْدادًا لخَوْضِ غِمارِ الحَرْب. وبعدَ زُهاءِ نِصْف ساعة، التأمَ مجْلِسُ حَرْبٍ، ووفْقًا لحِسابات إنفادوس، فإنّ توالا يملكُ حوالي أربعينَ ألفَ جنديٍّ.

عِند الفجرِ، أعلمنا إنفادوس بأنَّ كتائبَ توالا كانتْ تتحرّك، وبأنّها مُنْقسمةٌ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ، أيّ أنّها كانتْ تَنْوي الإطْباق علَيْنا من ثلاثةِ جوانب. بناءً عليه، جهَّزنا أنْفُسنا للمَعْركة بسُرْعةٍ كَبيرة.

تسلّلتِ الطّوابيرُ الثّلاثةُ إلينا بوتيرةٍ بطيئة. ثمّ توقَّف الطابورُ الأوْسطُ على قابِ قوْسيْن من التّلّ، ليُفْسِحَ المَجال أمام المَجْموعتَيْن الأُخْريَيْن بالتقدُّم أولاً. وفجأةً، وقبلَ أن نُدْرِكَ ذلك، انقضَّ علَيْنا جيشُ توالا من الجانبَيْن الأيْسَرِ والأيْمن. صمَّتِ الآذانَ الصَّيْحاتُ وقَعْقعةُ الرِّماحِ عندما اصْطدَمَ العدوّ بخطِّ الدِّفاعِ الأوّل. ثمّ انْضمَّ إلى المعْرَكةِ أيضًا كلٌّ من السّير كورتيس وغود. وببُطْءٍ شَديد، وشِبْرٍ تلو شِبْر، دُفِعَ بالقُوةِ المهاجِمةِ من جَديدٍ نَحْوَ التّل، إلى أنِ انْسَحَبَتْ كُلّيًا. وفي تلكَ الأثْناء، صُدَّ الهُجومُ أيضًا الذي كان يَحْتَدِمُ بين الفريقَيْن على الجانبِ الأيْسَر. ولكنْ ما أثارَ فَزَعنا كانت رُؤْيتُنا للأعْداءِ وهم يُقَوِّضونَ رجالَنا على الجِهَةِ اليُمْنى ويَدْحَرونَهم إلى الخَلْف. على الفور، وبناءً لأمْرٍ من إينيوزي، انضَمَّ الرَّماديّون إلى ساحَةِ القِتال، فالتَحَقْتُ بِهِم. ولما كَشَفَتِ الحرْبُ عن ساقٍ، أُصِبْتُ في رأسي فَأُغْمِيَ عليّ. وعندَما اسْتَعَدْتُ الوعْيَ، علِمتُ أننا هَزَمْنا العدوَّ في الوَقْتِ الرّاهن. ولكن كان كلٌّ من

الجانبَيْنِ قد تكبَّدَ خسائرَ كبيرةً في الأرْواح والعتاد. فيما بعد، عقَد آمبوبا اجْتماعًا آخر أعلن فيه عن نيَّتِه الإطاحة بتوالا في هذا اليوم بالذات. وقال: «أريد، يا عمّي، أن أسْتَدْعي أفْواجَ الرّماديّين، والزَّحْفَ إلى الوَسَطِ حيثُ ينتظِرُ جيشُ توالا. وسوفَ يُرافِقُهُم السِّير كورتيس. سوفَ يقومُ توالا بإرسالِ قوّاتِه لسَحْقِهم. ولكن بما أنَّ الممرَّ ضَيِّقٌ، سوفَ يتمُّ حمايةُ الرّماديّين من الجانبَيْن، ولن يكونَ أمامَ توالا سوى الهُجومِ مِنَ الجِهَةِ الأماميَّة. ثمّ آتي أنا على رأسِ الفَوْجِ الثاني – الجواميس، برفْقَةِ الصّيادِ الحَكيم. وبينما يكونُ توالا منْهمِكًا بمُحارَبتِنا، تزْحفُ أفواجُنا الأُخْرى على طولِ الجانبَيْنِ الأيْمن والأيْسر من التّل، وتَسْحَق جَناحَ توالا. وسوفَ يُرافقُهم في تلكَ المُهِمَّة الرَّجُلُ الأبْيضُ صاحِبُ العينِ المُتلألِئة».

وعلى هذا الأساس، تشكَّلتْ شُعبُنا بسُرْعة.

مَعْرَكَةُ الرّماديّين الأَخيرَة

تقدَّمَ الرّماديّون في ثلاثةِ طَوابيرَ واصْطَدَموا مَعَ أَعْدائِهِم في صِراعٍ مُميت.
فَدَوّى اصْطِدامُ الدُّروعِ بِبَعْضِها البَعْض مِثلَ الرَّعْدِ وتَطايرَتِ الحِرابُ الوامِضَة في السَّهْل. وفي غُضونِ دقائِق، سَحَقَ الرّماديّونَ الفوجَ الأوَّل من جيشِ توالا. وإذا بالمَشْهَدِ نفسِه يَتَكَرَّرُ على مرْأى منّا عندَ اصْطِدامِ فوجٍ آخَرَ بالرَّماديّين. ولكِنْ هذه المرَّة، استمرَّتِ المَعْرَكَةُ مدَّةً أَطْوَل.
ومعَ ذلك، فإنّ انْضِباطَ الرّماديّين الذي لا تشوبُهُ شائِبَةٌ وبَسالَتَهُم التي لا تَتَزَعْزَعُ قد مَهَّدا لهُم الطَّريقَ لتَحْقيقِ نَصْرٍ آخَر.
لم يخرجْ أحياءً من تلكَ المَعْرَكَة سوى ستّمئةِ عُنْصُرٍ من الرّماديّين المُضَرّجينَ بالدِّماء.
وعندَما انقضَّ فوجُ العدوّ الثالِثِ على الرّماديّين، انْضَمَمْنا إليهم، مُطْلِقينَ صَيْحاتِ الحَرْبِ الوَحْشيَّةِ التي تُعرَفُ بها كوكُوانا. ثم خاضَ توالا نفسُهُ غِمارَ المَعْرَكَة، ورمَى سِكّينًا مباشرَةً على السّير كورتيس الذي أُصيبَ في درْعه. إذّاك اندفَعَ توالا إلى الأمام، وضَرَبَ الفأسَ على دِرْعِ السّير هنري، فهَوَى أَرْضًا. عند ذلكَ فقط، رأَيْتُ المحارِبين يَنْقَضّونَ مِنَ اليَسارِ واليَمين

على جَيْشِ توالا. لقد حَضَرَتْ أَسْرابُنا لِنجدَتِنا في تَوْقيتٍ مُمْتاز!
بعد بضْعِ دقائِق، انْسَحَقَ توالا وجيشُه وفرّوا إلى لو.
زَحَفْنا إلى لو من أجلِ العُثورِ على توالا، وتوجَّهْنا مباشَرَةً نحو كُوخِه. فرأيناهُ جالِسًا خارِجَ كوخِه برِفْقَةِ غاغول. فقالَ في سُخْريةٍ مَريرة: «لقد هَزَمْتَ جَيْشي. ما الذي ستَفْعلُه بي؟»
«الشّيءُ نفسُه الذي فَعَلْتَه لوالدي!» قال إينيوزي.
«إنه لأَمْرٌ جيّد»، أجابَ توالا. «سوف أُقاتِلُ الرَّجُلَ الذي قتلَ ابني».
«أنا سوفَ أُقاتِلُه»، قال السيّر كورتيس وهو يتقدَّمُ إلى الأمام.
بدآ يدورانِ حولَ بَعْضِهما البَعْض رافِعَينِ فَأسَيْهما عاليًا. ثمّ ازدادَتْ وَتيرَةُ الحَماسِ عندما أصابا بَعْضَهما بَعْضاً بِجُروح. كانَ السّير كورتيس يقاتِلُ كمُحارِبٍ حقيقيّ، وفي نهايةِ المطافِ قُطِعَ رَأْسُ توالا. فنَزَعْتُ إكليلَ الماسِ عن رأسِهِ وأعطَيْتُهُ لإينيوزي الذي اعْتَمَرَهُ وهو يرفَعُ رُمْحَهُ عاليًا، فصَاحَ الجميعُ «كوم! كوم!»

غود يُصابُ بوَعْكَةٍ صحّيَّة

بعد أن وَضَعَتِ الحَرْبُ أوزارَها، وَلَجْنا كوخَ توالا، الذي أَضْحى فارِغًا الآن، لنَنْفُضَ عنّا وَعْثاءَ المَعارك. كنّا مُنْهَكي القُوى، ومُصابين بكَدَماتٍ وجُروحٍ بالِغَة. بيدَ أنّ فولاتا التي أَنْقَذْناها، قد ضَمَّدَتْ جُروحَنا، وأَوْلَتْ غود عنايَةً خاصَّة. ولكن، في صباحِ اليومِ التّالي، ارتَفَعَتْ حرارَةُ غود، فأُغْشِيَ عليهِ وما انْفَكَّ يبصُقُ الدَّم مِنْ جرّاءِ إصابَةٍ داخليَّة. أَمّا السّير هنري وأنا، فاسْتَعَدْنا نشاطَنا على الرُّغْم من شُعورِ الحُزْن الذي كان يَنْهَشُ قَلْبَيْنا.

تلاحَقَتِ الأيامُ، فانْقَضَى منها أربَعَةٌ أو خَمْسَة، وساءَتْ حالَةُ غود. أعتقِدُ جازِمًا بأنّه لولا وجود فولاتا التي لم تعرِفْ كَلالاً ولا مَللاً، ولولا رعايَتُها له، لكان أَضْحى الآن في خَبَرِ كان.

بعد أيام قليلة، عقد إينيوزي اجتِماعًا حيثُ قام أهل كوكُوَانا بتتويجِه رَسْميًّا مَلِكًا عليهم. ثم أَثْنى المَلِكُ المتوَّجُ على من تَبَقّى من فَوْجِ الرّماديّين، ورقّاهم، وقَدَّمَ لهم المَواشي عُربونَ تَقْديرٍ على شَجاعَتِهم.

بعد انْتِهاءِ الحَفْل، سألْنا إينيوزي ما إذا حَصَل على أيّ مَعْلوماتٍ جديدة من شَأْنِها أنْ تُرشِدَنا إلى مناجِمِ الماس.

«أَصْدقائي»، أجابَ قائلاً: «لقد عَلِمْتُ أن هناكَ حُفْرَةً كبيرةً تَغورُ أمامَ الآلِهَةِ الصّامِتَة – أيْ تماثيل آلِهَةِ كوكُوَانا الثّلاثة المحفورة في أَحْضانِ الجِبال. وخَلْفَ تلكَ التّماثيل، يَتوارى كَهْف. وفي داخِلِ هذا الكَهْف، قاعَةُ المَوْتِ حيث دُفِنَ أجدادُنا. وبين ثنايا تلكَ القاعَة، تَحْتَجِبُ غُرْفَةُ الكَنْزِ السِّرِّيَّة، التي لا يَعْرِفُ أحدٌ مكانَها سوى توالا وغاغول».

وبما أنَّ توالا كان ميتًا، طلبَ إينيوزي من غاغول اصْطحابَنا إلى غُرْفَةِ الحِجارَةِ الكَريمة. في بدايَةِ الأَمْر، أَبَتْ عليهِ ذلك ولكنَّها رَضَخَتْ في النِهايَةِ بعد أن هَدَّدها إينيوزي بالقَتْل.

قاعَةُ الموت

استغرَقَ الوصولُ إلى تماثيلِ الآلِهةِ الصَّامِتةِ ثلاثة أيامٍ من المَشَقّة. وقد رافقنا فيها كلٌّ من فولاتا وإنفادوس وغاغول وثُلَّةٌ من الحرَس. كنا نتّقِدُ حماسةً مع اقترابِنا من مَوْقِعِ المَناجِم. مَضَينا قُدُمًا، إلى أن بَلَغنا حُفْرَةً دائريَّةً واسِعَة مُنحدِرَةَ الجانبين. على حافَةِ الهاوية، تفرَّعَتِ الطَّريقُ إلى اثْنَتَيْنِ والتفَّتْ حولَها. رُحْنا نسيرُ خَبَبًا على هذه الطريق فشاهَدْنا على طَرَفِ الحُفْرَةِ الآخر تماثيلَ الحَجَرِ التي قُدَّتْ على طولِ ثلاثةٍ وثلاثين قَدَمًا – واحِدٌ من الأصْنام كان يُجَسِّدُ رَجُلاً، فيما رَمَزَ الصَّنَمان الباقيان إلى امرأتين. كانت تلك الأصنام تُعرَفُ بالـ«صَّامِتَة». كان ينتصِبُ على مسافةِ خمسينَ قَدَمًا من هذه التَّماثيل جِدارٌ من الصُّخورِ يبلُغُ ارْتِفاعُهُ ثمانينَ قَدَمًا. ترنَّحَتْ غاغول نحوَ الجِدار، وتوقَّفَتْ أمامَ مَدْخلٍ ضيّق. ثمّ غارَتْ داخِلَ مَمَرٍّ مُظْلِمٍ وهي تُنيرُ دَرْبَها بواسِطَةِ فانوس. حَذَوْنا حَذْوَها ونحن نَحْمِلُ سَلَّةَ الطَّعام.

وبعد دقيقَة، أصْبَحنا داخِلَ قاعةٍ هي الأكْبَرُ على الأرض! هناك، اصْطَفَّتْ أعْمِدَةٌ ضَخْمَةٌ من النّوازِلِ (الجليد) على طُولِ القاعَة. ثم أرشَدَتْنا غاغول إلى الجزءِ العُلْويّ من الكَهْف، حيثُ وَجَدنا مدخَلاً آخَرَ يُفْضي إلى «قاعَةِ الموت». ظلَّتْ عصا غاغول تَنْقُرُ على طولِ طريقِ المَمَرّ، وهي تُقَهْقِهُ قَهْقَهاتٍ تُثيرُ الهَلَع.

ثم، دَلَفنا إلى غرفَةٍ مُظلِمَةٍ حيث اسْتَقبَلَنا مَشْهَدٌ مروِّعٌ انْتَزَعَ قلوبَنا من مكانِها، إذ توسَّطَتِ المكانَ طاوِلةٌ طويلَةٌ من الحَجَر. وفي نهايَةِ الطاوِلَة، كان يجْلِسُ هَيْكَلٌ عَظْمِيّ بَشَريّ طولُهُ خمسةَ عشَرَ قَدَمًا يحملُ بيدِه رُمْحًا طويلاً أبيضَ اللون. وكانَتْ عيناهُ المجوّفتان تُحَدّقان بنا. للوَهْلَةِ الأولى، ظنَّ كلٌّ منّا أنه كان يقِفُ وَجْهًا لوجْهٍ بحَضْرَةِ المَوْتِ ذاته. هذا وكان يَتَرَبَّعُ في وسَطِ الطاوِلَةِ شَكْلٌ بُنّيّ اللون. وبعد نَظْرَةٍ فاحِصَة، اكتشَفْنا أن هذا «الشيء البنّي» كان جُثَّةَ توالا المَقْطوعَةِ الرَّأس مرتميّة على الرُّكبتين. وكانت طبقَةٌ رقيقَةٌ زجاجيَّة تُغطّي الجُثَّة.

ثم رأينا المياه تَنهمِرُ من سقْفِ الغرفَةِ على عُنُقِ الجُثَّة، وتسيلُ فوقَ الجَسَد. كانَتْ جُثَّةُ توالا تتحوَّلُ إلى صَنَمٍ من الجليد! وعندما أجَلْنا بنظَرِنا، رأينا أشكالاً أُخرى بيضاءَ اللّون تجلِسُ حولَ الطّاوِلَة، كانت جُثَثُ ملوكِ كوكُوانا الذين أدرَكَهُم الموتُ وأضْحوا الآن تماثيل من جَليد!

غرفَةُ كُنوزِ سُلَيْمان

«فلتُرْشدينا الآن، يا غاغول إلى غرفَةِ الكُنوز»، هَمَسْتُ قائلاً.
إذاك، أشارَتْ بإصْبَعِها إلى خلفِ التِّمثال، ثمّ أجابَتْ «هنا هي الغُرْفَةُ؛ أضيئوا المِصْباح، وادْخلوا».
أشْعلنا المِصْباح، ولكن كلّ ما رأيناه كان جدارًا صُلْبًا من الصَّخْرِ شامِخًا أمامَنا. ولكن، أصابَتْنا دَهْشَةٌ بالِغةٌ عندما راحَتْ كُتْلَةُ الحَجَرِ ترتَفِعُ ببُطءٍ عن الأرض، لِتتوارى خلف الصَّخْرِ أعلاه. لقد كان طولُ البابِ الذي جرى بِناؤه حديثًا حوالي عَشرة أقدام؛ أما سَماكَتُه، فلم تكُنْ تُقلّ عن خَمْسَةِ أقدام. وممّا لا شكَّ فيه أن غاغول كانَتْ تعرِفُ طريقَةَ فَتْحِه، لكنها كانت خَفيفة الحَرَكة ولم نلحَقْ أن نَلْمَحَها.
تقدَّمَتْ إلى المَدْخل وانتَظَرتنا في الممرّ. ولكن ما كِدْنا نمضي خُطُوات قليلَة، حتى أُغْمِيَ على فولاتا. فلم نَكُنْ نملِكُ خَيارًا سوى تَرْكِها في الممرّ مع سَلّةِ الطّعام. وأخيرًا، دَلَفْنا إلى غرفَةِ كُنوزِ الملِكِ سُلَيْمان. هناك، تراكَمَتْ في إحْدَى الزَّوايا مجموعَةٌ رائِعَةٌ من أنيابِ الفِيلَةِ من الأرض حتى كادَتْ أن تَصِلَ إلى السَّقْف. وكان هناك العديدُ من الصّناديقِ الخشبيَّةِ التي تَنْضَحُ بالعُمْلاتِ الذَّهبيَّة الغَريبَة.
«ولكن أين هو الماس؟» سألَ غود.
«إن نظرْتَ في المكانِ الأكثرِ ظُلْمَة، فسوفَ تَجِدُ ثلاثَةَ صَناديقَ من الحَجَر»، أجابَتْ غاغول. توجَّهنا إلى الزّاوية التي أشارَتْ إليها. فوجَدْنا عندَ الجدارِ ثلاثَةَ صَناديقَ كبيرةً مليئَةً بالماسِ الخام، تمامًا مثلما قالَتْ لنا غاغول. «ها هي الحِجارَةُ الثَّمينَةُ التي تَعْشَقونَها،» قالت غاغول وهي تبتسِمُ ابتسامَةً مَجْبولةً بالشَّرّ. «هل يمكِنُكُم أن تأْكلوها وتشْرَبوها؟»

وَجَدْنا الفكْرَةَ غريبةً جدًّا، فأَغْرَبْنا في الضَّحِك. ضَحِكْنا لأنَّ الماس قد أصبحَ الآن لنا. ولكنْ ما غَفَلْنا عنه، كان أنَّ غاغول قد خَفَّتِ الخُطى إلى خارِجِ غرفةِ الكُنوز باتِّجاهِ بابِ الصَّخْرِ الصُّلْب. وفجأةً، سَمِعْنا فولاتا تطلِقُ صَيْحاتِ ذُعْرٍ وخَوْف. «أوه، أيها السّادة! النّجدة! ساعِدوني! إنَّ البابَ يَنْغلِق!»

«دَعيني أذهبُ يا فَتاة»، قالَتْ غاغول في نَبْرَةٍ حادَّة.

«النَّجدة! لقد طَعَنْتني!» صاحَتْ فولاتا مُسْتغيثةً مرَّةً أخرى.

هُرِعْنا إلى آخِرِ المَمرّ، مُستنيرين بضَوْءِ المِصْباح. فرأينا البابَ الصَّخريَّ يهبِط، وفولاتا وغاغول تَتصارعانِ على مَقْرُبةٍ مِنْه. ثمّ أفْلَتتِ العجوزُ البائسَة من قَبْضةِ الشَّابة، وهمَّتْ بالزَّحْفِ نحوَ البابِ الصّخريّ الذي كان يَنْحدِر. لكنَّ الحظَّ لم يُحالِفْها! فانْسحَقَ جسَدُها تحت وطْأةِ ثلاثين طُنًّا من الحجر. سمِعنا صَرْخَةً مُدويّةً تلاها صَوْتُ طَقْطَقةِ عِظامٍ مُقَزِّزة. لقدْ سُدَّتْ فُتْحَةُ الجدارِ التي دخَلْنا منها! هُرِعْنا إلى فولاتا، ولكن بعد فواتِ الأوان! كانَتْ تُحْتضر، ولم يكُنْ هناك من شيءٍ يُمْكِنُنا القيامُ بهِ لإنْقاذِ حياتها. ثمّ تَنَبَّهنا إلى حَجْمِ المُصيبَةِ التي حلّتْ علَينا، وأدْرَكْنا أننا سوفَ نُدْفَنُ أحْياءً! وأنَّ غاغول قد نَصَبَتْ لنا هذا الفَخّ بدهاء. باطِلاً حاوَلْنا العُثور على مِقْبَضٍ أو ذِراعٍ لِفَتْحِ الباب. بعد حين، قُمْنا بتوزيعِ الطّعام وأكَلْنا القليل مِنْه كي يدوم أطولَ فتْرَةٍ مُمْكِنَة. ولكنَّ ضوءَ المِصْباح من جِهَتِه لم يَدُمْ طويلاً بل انْطَفأَ بعدَ بُرْهَة.

فقدانُ الأمَل

كانَ من المُرَوِّعِ الجُلوسُ هناكَ في انتظارِ المَوْتِ الوَشيكِ كَمَصيرٍ مَحْتومٍ بعد أنِ اضْمَحلّتِ الآمالُ وتَلاشَت. أدْبَرَ النّهارُ وأقْبَلَ اللّيل. ثم، انْتَزَعَتْني فكْرَةٌ من غَفْلَتي.

«لا يزالُ الجو مُنْعِشًا في القاعَةِ!» أشَرْتُ قائلاً.

«يا ربَّ السّماوات!» صاحَ غود مُدْرِكًا فَحْوى كَلامي، «لم يخْطُرْ لي ذلكَ قطّ. لا بُدّ أن الهواءَ يتسرَّبُ إلينا من مكانٍ غير ذلكَ البابِ الضَّيِّق».

بعد بُرْهَة، سَجَدْنا على رُكَبِنا نَتَحَسَّسُ كلَّ بُقْعَةٍ مِنَ المَكان، ونبْحَثُ عن فُتْحَةٍ ما في باطِنِها. فكانَ غود أوّل مَنْ عَثَرَ على شَرْخٍ في الأرضِ الصَّخْريَّة.

«كواترمان، ضَعْ يدكَ هُنا حيثُ أضَعُ يدي. أشَعَرْتَ بشَيْء؟»

فأجَبْتُ «أشعُرُ بنَسَماتٍ من الهَواء».

أشْعَلْتُ عودَ كبريتٍ من أصلِ ثلاثةِ عيدانٍ قد تبقَّتْ مَعي. بدأ قَلْبُنا يخفُقُ بعُنفٍ شديدٍ عندَما شاهَدْنا شَرْخًا في الأرْضِ الصَّخريَّةِ الصُّلْبة، وحَلْقَةً صَخْريَّةً تَكاد تكونُ ملتصِقَةً بأرْضيَّةِ الغُرْفة. على الفَوْرِ ومن دونِ إضاعَةِ وَقْت، اسْتَلَّ غود سكّينًا وراحَ يَحْفِرُ حولَ الحَلْقَة، إلى أن بدأتْ تتحرَّكُ وأضْحَتْ في وَضْعٍ مُسْتقيم. إذّاك، دَفَعَ بيدِهِ داخِلَها وحاولَ سَحْبَها بكلِّ ما أوتي من قُوَّة، بيدَ أنّها لم تَتَزَحْزَحْ من مكانِها قَيْدَ شَعْرَة.

عندئذٍ، قُمْنا سويًّا بسَحْبِها، فانْسَلَّتْ من مكانِها، فاسِحَةً الطريقَ أمامَ نَسْمَةٍ قويَّةٍ مِنَ الهواءِ سَرعانَ ما هَبَّتْ في وُجوهِنا.

عندَما أشْعلنا عودَ كبريت، تراءَتْ لنا سِلْسِلَةُ دَرَجاتٍ تنزلِقُ نزولاً في قَلْبِ الفَجْوَة.

وبالطَّبْعِ لم أغادِرِ الغرفَةَ قبلَ أن قُمْتَ بملءِ سَلَّةِ الطعامِ بأكْبرِ الماساتِ التي كانَ يُمْكِنُني حَمْلُها حَجْمًا، وحَشْوِ ما توفَّرَ من جُيوبٍ فارِغَةٍ في مِعْطَفِ الصَّيْدِ وسِرْوالي.

آلَ بنا السُّلَّمُ إلى نَفَقٍ ضَيِّقٍ سَرعانَ ما تَفرّعَ إلى طريقين يَمينًا ويسارًا. هناك، اقْترَحَ علينا غود أن نتَّجِهَ يمينًا كونه الاتجاهُ الذي تَنْسابُ منهُ نَسَماتُ الهَواء.

قَضَيْنا ساعاتٍ طوالاً ونحن نعبُرُ المَمَرّات واحدةً تِلْوَ الأُخْرى ونتحسَّسُ الجُدْرانَ مع كلِّ خُطْوةٍ نقومُ بها.

ظَلَلْنا فترةً على هذا المِنْوال إلى أن أَعْيانا التَّعب، فتَوقّفنا لِتناوُلِ ما تَبَقّى معَنا من طَعام.
وآنذاك، سَمِعْتُ هَمْهَمَةً خافِتَة. فقالَ غود «إنّها مياهٌ جارِيَة».
انْطلَقْنا باتِّجاهِ خريرِ المياهِ فيما كانَ الصَّوْتُ يزدادُ قُوَّةً شَيْئًا فَشَيْئًا. ثم سَمِعْنا صوتَ كُتْلَةٍ تقَعُ في الماء، وغود يصْرُخ.. «غود، غود، أين أنت؟» نَدَهنا إليهِ وقدِ اسْتَوْلَى علينا الذُّعْر. «لقد تَمَسَّكْتُ بصَخْرَة» أجابَنا، مُزيحًا بجوابِهِ صَخْرةً أكبرَ عن صَدْرِنا.
وبسُرْعَةٍ كبيرة، أشْعَلتُ عودَ الكبريتِ الأخير، فرأَيْنا المياهَ تَجْري عندَ أقدامِنا، وغود متمسِّكًا بصَخْرَةٍ في وَسطِ المياهِ على بُعْدِ بِضْعَةِ خُطُوات منّا. قُمْنا بإعادَتِه إلى النَّفق، ثم استأْنَفْنا طريقَنا داخِلَ الممَرّ إلى أنْ أَفْضى بنا إلى نفقٍ آخر.

كان السّير هنري في الطَّليعَةِ عندما توقَّفَ فجأةً وقال: «انظُروا، هل هذا ضَوْء؟» مُشيرًا إلى البريقِ الخافِتِ والبعيدِ الذي كان يلوحُ أمامَنا.
زوَّدَنا ذلك البَصيصُ بِجُرعَةِ أملٍ أوْقدَتْ فينا الحَماس، فرُحْنا ندفَعُ بالصَّخْرَةِ بلا كَلَل، وما كادَتْ تَنْقَضي بِضْعَةُ دقائِقَ حتّى شَعَرْنا بنَسْمَةٍ من الهَواءِ النَّقي تَلْفَحُ وُجوهَنا. ثمَّ أَصْبَحَ السّير هنري بطَرْفَةِ عَيْنٍ خارِجًا. تبِعْتُه برِفْقَة غود، فإذا بنا نتدَحْرَجُ ونَتَقلّب على عُشْبٍ، فَشُجَيْرات، ليَنْتهي بنا المَطافُ على تُرْبَةٍ وعُشْبٍ رَطْبَيْن. بكينا من الفَرَح لأننا تَمَكّنا من الهروب من تلك الزَّنزانَةِ النَّكْراء التي كادَتْ أن تَضْحَى مَقْبَرتَنا. كافَحْنا ببُطءٍ ومَشَقَّةٍ للوصولِ إلى الطَّريق.
وفجأةً، رأينا إنفادوس مُسْرِعًا نَحْونا. ثمّ صَرَخ قائِلاً بعد أنِ ارْتَمى على قَدميْ السّير كورتيس: « أوه، أيها السّادة، لقد عُدْتُم!».

وداعُ إينيوزي

بعد مرورِ عَشَرةِ أيامٍ على ذلكَ الصّباحِ الحافِلِ بالأَحْداث، عُدْنا إلى العاصِمةِ لو حيثُ اسْتَقْبَلَنا إينيوزي بفَرَحٍ لافتٍ. ثمّ أصاخَ سَمْعًا إلى روايَتِنا المُدْهِشَة وما انْطَوَتْ عليه من غرائِب. من ثمّ أخبرتُ إينيوزي بأننا نَرْغَبُ بمُغادَرَةِ كوكُوَانا.

«إن قلبيَ حَزينٌ»، قال إينيوزي بعد أن صَمَتَ لِبُرْهَةٍ. ثمّ أردَفَ سائِلاً، «لِمَ تُريدون الرَّحيل؟ سوفَ أُقدِّمُ لكم كلَّ ما تَحْتاجون إليهِ هنا.»

إذاك، وضَعَتُ يدي على ذِراعِه وسألْتُه: « قُلْ لي يا إينيوزي، ألم يُناجي قلبكَ مَسْقط رأسِكَ إبّان رِحْلاتك؟»

«أجل.» أجاب.

«حَسَنًا، إنَّ قلوبَنا هي أيضًا تَهْفو إلى العَوْدَةِ إلى الدّيار».

تَفَهّمَ إينيوزي مَشاعري وقال: «علِمْتُ أن هناكَ مَسْلَكًا آخَر عبرَ الجِبال. سوف يُرْشِدُكُم إليهِ عمّي إنفادوس لَدى رحيلِكُم».

غادَرْنا لو فَجْرَ اليوم التّالي. ولكن قبلَ رحيلِنا، أقبلَتْ إلينا جموعٌ غَفيرةٌ تودِّعُنا، فأغْدَقَتْ علينا الزُّهور، وتمنَّتْ لنا رِحْلَةً مَيْمونَة.

وفيما كنا نَسْتدِلُّ على الطّريق، قال لنا إنفادوس إن ثمَّةَ منحدَراً يَفْصِلُ كوكُوَانا عنِ الصَّحراء يمكِنُنا اجتيازه. كما دَلّنا على واحَةٍ يمكِنُنا أن نَسْتريحَ فيها من وَعْثاءِ السَّفر، وقد رافقنا إليها بعضُ الصّيّادين.

بعد مرورِ أربعَةِ أيام، وَصَلْنا إلى قِمَمِ الجبالِ التي تَفْصِلُ ما بين كوكُوَانالاند والصَّحراء.

فكانَ علينا أوّلاً أن نَنْحَدِرَ نُزولاً مسافَةَ ألفَيْ قَدَم تقريبًا على حافَةِ هُوَّةٍ شاهِقَة. قُمْنا بوَداعِ إنفادوس الذي اغْرَوْرقَتْ عيناهُ بالدُّموع ثمّ انْطَلَقْنا نزولاً برِفْقَةِ مُرافقينا الذين تَزوّدوا جيّدًا بالماءِ والمُؤَن.

وبحلولِ المَساء، بلَغْنا أطرافَ السَّهل. ثمّ عَبرَنْا الصَّحراءَ، وعندَ غُروبِ الشَّمْسِ في اليومِ الثّالث، وَصَلْنا إلى الواحَة.

العُثور على المَفْقود

آنَ الأوانُ كي أتلُوَ عليكُم أغربَ مغامَرَةٍ قد تكون صادَفَتْنا! كنتُ أسيرُ بهُدوءٍ بجانِبِ جدولِ مياهٍ يَنْبَعُ في الواحة، عندما لَمَحْتُ شيئًا جعلَني أخالُ نَفْسي في حالٍ من الهَذيان، فرُحْتُ أَفْرُكُ عينَيّ. هناك، بِجوارِ كوخٍ دافئ، أبْصَرْتُ رجلاً أبيضَ البَشَرَةِ تَتَدلّى منهُ لِحْيةٌ سوداءُ هائِلَة.

عندما انْضَمّ إليّ السّير كورتيس والكابتن غود، رُحْنا نُحَدِّقُ ببعضِنا بَعْضًا في ذُهول. وفجأةً، أَطْلَق الرَّجُلُ الأبيضُ صَرْخةً قويَّة، ثمّ هَرْوَلَ إلينا.

«إنه جورج شقيقي!» صاحَ السّير كورتيس بلَهْفَةٍ كَبيرة.

دَفَعَتِ الضَّجَّةُ بشَخْصٍ آخر للخروجِ من الكَهْف، والذي ما لَبِثَ أن رَكَضَ نَحْوي وارْتَمَى على قَدَمَيّ. إنه جيم الصّياد. فاسْتَغْلَقَ عليّ الكَلام.

صاحَ السّير هنري قائِلاً: «اعتقدتُ أنكَ لقيتَ حَتْفَك. جُلْتُ جبالَ سُلَيْمان بَحْثًا عنكَ. حتّى إنّني فَقَدْتُ كلَّ أَمَلٍ في رُؤيتِكَ ثانية، وها أنا الآن أجِدُك في الصَّحراء.»

«حاوَلْتُ عبورَ جِبالِ سُلَيْمان قبل نحو عامَيْن، ولكن عندما وَصَلْتُ إلى هنا، هَوَتْ صَخْرةٌ على ساقي وسَحَقَتْها، فبِتُّ غير قادرٍ على المُضِيّ قُدُمًا أو العودَةِ إلى الوراء.»

عندئذٍ، أسرَّ له السّير هنري مغامراتنا وأراهُ بعضًا من أَحْجارِ الماس.

«يا لَلْهول!» قال جورج، «على الأقل حَصَلْتَ على شيءٍ كتعويضٍ عن المتاعِبِ التي تكبَّدْتَها، ناهيك عن عُثورِك عليّ في هذه الحال التّعيسة.»

طَلَبْتُ من السّير كورتيس أن يُقسّمَ الماس إلى ثلاثِ حِصَص، وأن يمنَحَ جورج حُصَّةً كونَهُ ذاقَ الأمرَّيْن وكان أكثرَ من عانى بَيْننا.

عند هذا الحدّ، أضعُ نُقْطَةَ النهايَةِ لروايتي هذه. عُدْنا إلى دوربان بعدَ عَناءٍ طويل. فيما عادَ رفيقاي إلى إنكلترا. وبالطَّبْعِ في جُعْبَةِ كلٍّ منّا ثَرْوةٌ طائِلَة.

هذا الصّباح، تلقّيْتُ رسالَةً من السّير هنري كورتيس يسألُني فيها المَجيء إلى إنكلترا لرُؤْيَةِ ابني هاري. اليومُ هو الثُّلاثاء. ويومُ الجمعة، ثمّةَ سفينةٌ سوفَ تُبْحِرُ باتجاهِ إنكلترا. وأنا سوفَ أستقلُّها لرؤيَةِ هاري، ولربما أيضًا لنشْرِ هذه القِصَّة.

كنوز الملك سليمان

... أَشْعلنا المِصْباح، ولكن كلّ ما رأيناه كان جِدارًا صُلْبًا من الصَّخْرِ شامِخًا أمامَنا. ولكن، أصابَتْنا دَهْشَةٌ بالِغَةٌ عندما راحَتْ كُتْلَةُ الحَجَرِ ترتَفِعُ ببُطءٍ عن الأرض، لِتَتوارى خلفَ الصَّخْرِ أعلاه. لقد كان طولُ البابِ الذي جرى بِناؤه حديثًا حوالي عَشرة أقدام؛ أما سَمَاكَتُه، فلم تكُنْ تُقلّ عن خَمْسَةِ أقدام. وممّا لا شكَّ فيه أن غاغول كانَتْ تعرِفُ طريقَةَ فَتْحِه، لكنها كانت خَفيفة الحَرَكَة ولم نلحَقْ أن نَلْمَحَها ...

صدر من هذه السلسلة:

- كنوز الملك سليمان
- رحلة إلى باطن الأرض
- عائلةُ روبنسون السويسريّة
- عشرون ألف فرسخ تحت الماء
- أطفالُ سكّة الحديد
- الفرسان الثلاثة
- ديفيد كوبرفيلد
- الحديقة السريّة
- توم سوير
- كتاب الغابة
- أحدب نوتردام
- أوليفر تويست

ISBN: 978-9953-37-912-8

تم تصنيف هذه القصّة وفق معايير « عربي 21 » لتصنيف كتب أدب الأطفال العربي، وقد صنّف مستوى « ص » ـ « متقن أدنى »

ص

أكاديميا